



برسى يش شلى

١٧٩٢ - ١٨٢٢ م

آراؤه فى الذود عن الشعر

(٤)

وكلا الاثنين دانتي وملتون قد تفذا فى صميم الدين القديم للعالم المتقدم فان روحه تحيا فى شعرهما وربما بنفس النسبة التى بقيت عليها صورته فى تلك العبادة الفاسدة فى أوروبا الحديثة .

فأحدهما سبق حركة الاصلاح والاخر اثنى بعدها - بفترة متقاربة غالباً - فكان دانتي أول مصلح دينى وقد فاقه لوث فى الغلظة والفظاظة لا فى الجرأة والتشهير على استبداد البابوية .

كان دانتي أول منقلد لأوربا الفارقة فى سباتها فخلق لغة فيها موسيقى وفيها اقناع من عماء الهمجية المتنافرة وكان الحاشد لتلك الأرواح العظيمة التى أشرفت على نهضة إحياء العلوم ، فكلماته ذاتها طبيعية للروح : كل كلمة شرارة وذرة مشتعلة لفكرة باقية أبداً .

وكل شعر سام لا يحدّ فرمما أزيح ستار عقب ستار ولا نصل إلى جماله الحقيقى . والقصيدة الرائعة ينبوع متدفق بمياه الحكمة والاجتهاد وبعد أن يستنفد الشخص أو العصر كل قوته إلهية التى تتيحها له الروابط الخاصة بخلفه آخر ثم آخر وتتجدد العلائق دائماً وتصبح مصدر سرور غير مدرك . وقد عنى ذلك العصر الذى تلا عصر دانتي وبترارك وبوكاشيو بالتصوير والنحت وفن البناء ، وقد أمسك تشوسر بالاھام الألهى وقام الأديب الانجليزى على أنقاض الأديب الايطالى . ولكن دعنا لا نحيد عن

الدود إلى تاريخ نقدي للشعر وتأثيره على المجتمع فكفى أن المعنا بتأثير القراء بكل معنى الكلمة في عصورهم والعصور التي تلتها . ولكن الشعراء هوجوا من طريق آخر ليتخلوا عن عرشهم إلى رجال العلم والعقل . فمن المسلم به أن استخراج الخيال يبعث السرور كثيراً ولكن استخدام العقل أنفع . دعنا نشرح على هذا الفرق ما الغرض هنا من المنفعة ؟ فاللذة أو الحس في معنى أشمل هو الذي يدب للحصول على وجدان كل رجل حساس ذكي ، وعند الحصول عليه يكتب . فهناك نوعان من اللذة إحداهما عامة باقية ومستمرة والاخرى وقتية خاصة . والمنفعة لا بدائنه تتخذ سبيل إحداها ، فالأولى زيادة على مصاعفتها وتهذيبها وتوسيعها للخيال وإلباسها روحاً جديدة للحس فهي نافعة . ولكن ربما يتبادر إلى الذهن معنى أضيق لكلمة منفعة بأن تقتصر على التعبير عن ذلك الذي ينيلنا كل ما تتطلبه طبيعتنا الحيوانية وجعل الناس في أمن ودعة . ومما لاشك فيه أن ناشري المنفعة على هذا المعنى لهم مكانهم الخاص في المجتمع فهم يتبعون آثار الشعراء وينقلون مقتطفات انتاجهم إلى كتاب الحياة العامة ، ومساعدتهم سامية ما دامت تربط قوانا الطبيعية الدنيا بمحدود قوانا العليا . ولكن عندما يهدم الشاك تلك الخزعات المتركمة عليه أن يحذر أن يشوه — كما شوه قبله الشعراء الفرنسيون — الحق الخالد الذي صبغ خيال الناس ، وعند ما يشرع المهندس الميكانيكي في تقصير المسافة ويوجد العمل رجل الاقتصاد السياسي فعليهما أن يتنبها إلى ارتباط تأملاتهما بالنظريات الأولى التي هي من عمل الخيال . *

ومن الصعب أن نعرف اللذة في أسمى معناها ، فإن التعريف يتضمن عدداً عظيماً من المتناقضات الظاهرية لأنه من النقص الغامض في تكوين الطبيعة الانسانية أن الألم الذي يصيب أجزاءنا الدنيا تتبعه لذة في أجزاءنا العليا . فالحزن والخوف والألم واليأس نفسها هي المبل المتخادعة لتقربنا من الخير السامي . وشعورنا بالعطف في المأساة يقوم على هذه النظرية : فالمأساة تدخل علينا السرور بعرضها علينا ظلاً من السرور الذي يوجد في الألم . وهذا أيضاً أساس الحزن الذي لا يمكن فصله من أعذب الألحان . واللذة التي توجد في الحزن أقوى من اللذة التي توجد في اللذة نفسها ، وعلى هذا قد قيل « الأفضل أن تذهب إلى مأتم من أن تذهب إلى عرس » وليس ذلك أن النوع السامي من السرور لا بد أن يقترن بالألم ، فإن الابتهاج بالحب والصدقة والافراط في إعجابنا بالطبيعة وسرورنا بادرا كنا الشعر تخلوا منه خلواً تاماً .

فادخال اللذة وتقويتها في أسمى معناها هو منفعة حقيقية . وأولئك الذين يجلبونها ويحفظونها شعراء أو فلاسفة شعراء .

وإن جهود لوك وهيوم وجييون وفليثير وروسو وتلاميذهم في اسعاد الانسانية الفضالة المظلومة قد أوجدت شعور الاشفاق بالجنس البشرى (ومع أن روسو وضع هكذا فقد كان في قرارة نفسه شاعراً . أما الآخرون حتى فليثير فكانوا مجرد علماء) ومع ذلك فمن السهل أن نقف على مقدار التقدم الأخلاقى والعقلى الذى كان يمكن للعالم أن يكون عليه لو أن هؤلاء لم يوجدوا . وإن شيئاً واحداً يطرق خيال كل واحد وهو تصور حالة العالم الأخلاقية إذا كان أمثال دانتي وبتارك وبوكاشيو وتشومرو وشكبير وكلدردن ولورد بيكون وملتون لم يظهروا على مسرح الحياة ورفائيل وميخائيل انجلو لم يوجدوا ، أو أن الشعر العبرى لم يترجم ، أو ان العودة الى درس الأدب اليونانى لم تحدث ، أو أن آثار النحت القديم لم تصل إلينا أو أن الشعر الذى فى دين القدماء قد باد . فانه ما كان للعقل الانسانى - إلا بوجود هذه المحفزات - أن يستيقظ الى اختراع هذه العلوم المتشعبة وأن يدخل قوة العقل النافذة فى اضطرابات المجتمع التى تحاول الآن أن تسمو على التعبير المباشر للملكة الاختراع والابتكار نفسها . فلدينا حكمة أدبية ومياسية وتاريخية أكثر مما نعرف كيف نوجهها الى العمل ، ولدينا معرفة علمية واقتصادية أكثر مما يتناسب مع التوزيع العادل للانتاج الذى يضاعفه . فالشعر فى هذه النواحي من التفكير يحنى وراء الحقائق المجتمعة والفروض المتعددة ، ولكننا فى حاجة الى ملكة الابتكار لتصور الشئ الذى نعرفه ، وفى حاجة أيضاً الى الحافز العظيم لعمل ما نتصوره . نحن فى حاجة الى شعر الحياة فقد سبق تقديرنا ادراكنا وأكلنا أكثر مما تقوى على هضمه ، وإن استثمار تلك العلوم التى وسعت حدود سلطة الانسان على العالم الخارجى لى حاجة شديدة الى الملكة الشعرية حتى نقف على كنه العالم الداخلى . فالانسان مع انه استعبد العناصر الطبيعية لا يزال عبداً ، ووظائف الملكة الشعرية مزدوجة فتخلق باحداها مواداً جديدة للمعرفة والقوة واللذة وتولد بالأخرى رغبة فى العقل لنشر هذه المواد من جديد وترتيبها تبعاً لنظام خاص يمكن أن يطلق عليه الجمال أو الحسن .

والحاجة الى الشعر لا تطلب إلا فى أوقات - عند ما يقهر تراحم المواد الخارجية من الافراط فى حب الذات والانشغال بالماديات - تلك القوة التى تحولها الى قوانين داخلية للطبيعة الانسانية فيصبح الجسم حينئذ ثقيلآ على ذلك الذى يبعث فيه الحياة .

والشعر في الحقيقة شيء إلهي فهو مركز ومحيط دائرة المعرفة . وهو الذي يدبر سائر العلوم وهو في نفس الوقت زهرة التفكير . هو الشكل الذي يتدفق منه الكل والذي يزين الكل . وهو الذي — إذا لفحه لافح — أهلك فيه الثمرة والبذرة ومنع الغذاء عن شجرة الحياة وعاق نمو أغصانها . فهو أبدع وأتم زهرة لجميع الأشياء .

وهو في رائحة ولون الورد لا في حياكة العناصر التي تتألف منها . وهو في شكل وروعة الجمال الحلي لا في الوقوف على دخائله وأسراره .

ماذا تكون الفضيلة والحب والوطنية والصدقة ؟ بل قل ماذا يكون جمال هذا العالم الذي نعيش فيه ومن يكون عزاؤنا على جانب هذا القبر وماذا تكون رغائبنا بعد أن نودع فيه إذا لم يكن الشعر قد صعد ليستحضر نوراً وناراً من تلك الأرجاء الخالدة حيث ملكة العقل لا تجرؤ على التحليق فيها ، ولو استعارت أجنحة نسر ؟

والشعر ليس كالعقل ملكة يمكن إجهادها نزولاً على رغبة الإرادة . فلا يستطيع إنسان أن يقول « لا بد أن أنشيء قصيدة » . فإن أعظم الشعراء يستطيع أن يقول ذلك لأن أثر العقل في الابتكار كأثر القنديل الذابل الذي يضيء وقتاً ما بعامل خفي كريج غير دائمة الهبوب . فهذه القوة تتولد من الداخل كلون الزهرة التي تذبل وتبديل عندما تأخذ في النمو . والأجزاء الشعورية في طبيعتها غير منبئة سواء في قربها أو بعدها . فلو كان هذا التأثير مستمراً في صفاته وقوته لما استطعنا أن نتنبأ بعظمة النتائج . ولكن عند البدء في الكتابة يكون الإلهام قد انطفأ . ولذلك فإن أروع أنواع الشعر الذي ارتبط بالعالم ربما كان ظلاً ضعيفاً لمشاعر غريبة للشاعر . وإذا نظرنا إلى أعظم شعراء هذا العصر نجد أنه من الخطأ أن نقرر أن أروع صحائف شعرهم كانت وليدة الاجتهاد الفكري . وإن الكد والباطل اللذين امتدحهما النقاد يمكن أن يفسرا بأنهما لا يعبران عن أكثر من ملاحظة دقيقة لدقائق الإلهام ، وقد فهم ملتون الفردوس الضائع جملة قبل أن يبرزها أجزاء . فأمامنا سلطته الخاصة على آلة الشعر وهي تملي عليه أنشودته من غير تعمل أو قصد . فنل هذه المنتوجات للشعر كالسيفساء للتصوير .

والغريزة وفطرة الملكة الشعرية لا تزالان أكثر ظهوراً في الفنون السهلة التصويرية ، فالمثال الفخم أو الصورة البديعة تأخذ في التطور كما ينمو الطفل في بطن

أمه . فالشعر هو سجل دوتت فيه أحسن وأسعد ساعات لأحسن وأسعد المقول .
الشعر كما كان تفسير الطبيعة أسمى وأقدس في داخلنا . وهذه الأشياء وغيرها
التي تتصل بالوجود قد أفصح عنها بكل جلاء أولئك الذين وهبوا حساسية زائدة
وخيالاً خصباً . وليس الشعراء خاضعين لقوانين فهم أرواح من أرقى وأسمى نوع .
يلوتون كل ما يتصل بهم بألوان شفافه، فالكلمة صورة فريدة في تصوير منظر أو
عاطفة تمس الوتر المسحور ونحني في أولئك الذين طالما أفصحوا عن عواطفهم صورة
الماضي الدقيق . ولذلك يهب الشعر الخلود لأجل وأحسن ما في العالم . فهو ينتشل
من يد الفناء الزورات الآلهية في قداسة الانسان .

وهو يبدل كل شيء الى حسن فهو يسو بحمال أجمل الاشياء ويهب الجمال أحقرها
وهو بزوج الابتهاج بالهلع، والحزن بالفرح، والابدية بالتغير وهو يوحد تحت سلطانه
الخفيف كل الاشياء المتنافرة . وهو يغير كل ما بمسه، وكل صورة تشع في داخله تتحول
بحيلة غريبة الى لباس للروح التي يخلقها . فكيميائه الخفية تحول تلك المياه السامة
التي يصبها الموت على الحياة الى ماء عذب في أكواب ذهبية .

وهو ينزع عن العالم نقاب الالفه ويعرض ذلك الجمال العارى الناعس الطرف
الذي هو روح صوره . وقد وجدت جميع الاشياء كما أدركت أو على الأقل كما أدركها
الشاعر . والعقل ذاته يستطيع أن يخلق جنة في مكان الجحيم وجحماً في موضع الجنة .
ولكن الشعر يكسر ذلك القيد الذي يضطرنا الى الخضوع الى التأثيرات المحيطة بنا .
وسواء أكان ينشر ستاره الرمزي أم يزيح القباب الاسود للحياة عند النظر الى الأشياء
فهو يخلق وجوداً داخل وجودنا ويجعلنا سكان عالم يحسب هذا العالم المؤلف عماء
ويستعيد العالم العام الذي نحن أجزاءه وشعراؤه . وينقى بصرنا من غشاوة الالفه
التي تحجب عناسر وجودنا وجلاله . وهو يضطرنا الى أن نشعر بما ندرکه وأن نتخيل
ما نعرفه .

وهو يخلق العالم من جديد بعد أن تلاشى في عقولنا بمعاودة الآثار التي بلدت
بالتكرار، وكما أن الشاعر هو الموجد لأسمى أنواع الحكمة واللذة والفضيلة والمجد
نفبغى أن يكون أسعد وأعقل مشاهير الرجال . أما عن المجد فدع الزمن يكشف لنا عما
إذا كانت شهرة أى مذهب آخر للحياة الانسانية تنازع شهرته . وكونه أعقل وأسعد
وأحسن الرجال، وكونه شاعراً شيثان متلازمان لا يحتاجان الى إثبات . فأعظم الشعراء

كانوا أكبر رسل للفضيلة على أكل وجوهرها . ولو أمكننا أن نقف على دخائل أرواحهم ألفيناهم أسعد الناس حظاً وربما نستثنى أولئك الذين وُهبوا ملكة شعرية سامية ولكنها ليست باللغة في السمو ، ولكنهم على أي حال يحافظون على القانون بدلاً من أن يأتوا عليه . دعنا نصدر حكماً أو شهادة بدون محاماة بأن بعض بواعث أولئك الذين يجلسون في ذلك المسكان الذي لا تجرؤ على التحليق فيه تستحق الموم . دعنا ندعى أن هوميروس كان سكيراً وأن فرجيل كان متملقاً وهورس كان جباناً وتسو كان مجنوناً ولورد بيكون كان مختلساً وروفايل كان خليعاً وسبنسر كان مأجوراً ولا يليق بنا الآن أن نعلن عن شعرائنا الأحياء ولكن أخلافنا سيصدرون حكماً أشمل مع أصحاب هذه الأسماء فقد قدرت غلطاتهم ووجدت غباراً دقيقاً في كفة الميزان .

فلو كانت خطابهم حمراء كالقرمز فهي الآن بيضاء كالثلج قد غسلت في دم الزمن لفادى الغفور ، انظر كيف امتزجت تلك التهم الصحيح منها والباطل في حالة مشوهة مثيرة للضحك بالافتراء ضد الشعر والشعراء ، وانظر ما أحقرها عند ظهورها ! فالأجدر أن تنظر إلى بواعثك الخاصة ولا تحكم وإلا حكمت على نفسك . والشاعر - كما قيل - يخالف العقل في هذه الناحية ، أي أنه لا يخضع لسلطان قوى العقل الناشطة .

لقد ظننت أنه من صالح الحق أن آتي بهذه الملاحظات تبعا لذلك النظام الذي هيأه لها عقلي ومن حيث الموضوع ذاته بدلاً من الأخذ بالصورة الظاهرة للجدال المنطقي . فاذا كان الرأي الذي تضمنته صحيحاً عادلاً فستبقى لتدحض حجج الذين يكرهون الشعر .

والجزء الأول من هذه الملاحظات قد اختص بالشعر في عناصره ونظرياته وقد ظهر بقدر ما سمحت به تلك الحدود الضيقة التي جددتها ان ما يطلق عليه لفظ شعر في معنى مقيد له اتصال عام بجميع أنواع النظام والجمال التي نظمت سائر مواد الحياة وهذا هو الشعر في معناه العام .

أما الجزء الثاني (وهذا لم يكتب قط) فسيكون غرضه تطبيق هذه النظريات على الحالة الراهنة لتهديب الشعر ورد تلك المحاولة التي تسمو إلى العلاتك الصور الحديثة للأخلاق والآراء وتخضعها إلى الخيال وملكة الابتكار ، لأن الأدب الانجليزي

بذلك الرقي السريع الذي سبقه أو صاحبه شيء كثير من الرقي القومي والحرية الفردية قد هبَّ قوياً نشيطاً كأنما عاودته حياة جديدة .

وعلى الرغم من الحقد الدنيء الذي ينقص من شأننا الآن فإن عصرنا سيبقى مذكوراً بالتفوق العقلي ، واننا منجياً بجانب أولئك الفلاسفة والشعراء ، واننا نربأ بأنفسنا من أن ننزل الى درجة أولئك الذين ظهروا منذ حركة الجهاد القومي الأخيرة لأجل الحصول على الحريتين المدنية والدينية .

وإن أعظم نذير جدير بإيقاظ شعب عظيم ليحدث انقلاباً نافعاً في الآراء والتعاليم هو الشعر . وأولئك الذين سكنت فيهم تلك القوة كثيراً ما يكونون أقل ارتباطاً بروح الخير والحسن التي يسيطرون عليها وهذا يرجع إلى طبيعتهم . ولكنهم حتى في انكارهم وابتعادهم عنها تراهم مضطرين إلى خدمة تلك القوة التي تربعت على عرش قلوبهم . ومحال أن نقرأ ما كتبه مشاهير كتابنا اليوم دون أن نصيبنا رعشة من تلك الروح المكهربة التي تحترق خلال كلماتهم ، فهم يقيسون محيط الطبيعة الانسانية ويقفون على أعماقها بروح نافذة ، وربما كانوا أنفسهم أعجب مظاهرها الحقبة فأرواحهم ليست أقل من أرواح عصرهم قوة ونفاذاً .

الشعراء هم شراح الالهام الالهي . وهم المرأى لتلك الظلال الكثيفة التي يشعها المستقبل على الحاضر . وهم الكلمات التي تفصح عن شيء لا تفهمه ، والابواق التي تعزف للمعركة ولا تشعر بما تبعته ، والحرك الذي يحرك ولا يتحرك .

والشعراء هم مشرعو العالم وإن لم يعترف بهم ؟

نظمي خليل



جون كيتس

(٣)

ونظم كيتس أحسن أعماله في ربيع عام ١٨١٩ تحت تأثير ذلك الحب الجارف نذكر ، منها « الى بلبل » و « الحسناء القاسية » و « الكسل » وكثيراً من قصائده ومقطوعاته الجميلة . واختلف مع صديقه هيدون في تلك الاثناء ، ذلك أن الرثام كان بحاجة الى مبلغ

من المال فأعطاه كيتس ثلاثين جنيهاً، ولما كانت حال كيتس قد أخذت تسوء فقد طلب إلى صاحبه أن يسدد ما عليه من دين ، فلم يحقق هذا رجاءه ، ومن ثم نشأ النزاع . ولكن براون أعطى كيتس ما يحتاج اليه من المال ليقتضى صيفاً بهيجاً . وفي الثالث من يوليو ودّع كيتس (فاني) إلى أيام يقضيها في شانكلين ، حيث اقتسم المسكن مع جيمس ريس الذي قصد المكان نفسه للاستشفاء . وكان كيتس كذلك ضعيفاً في تلك المدة ، ورغم أن الرجل الذي كان يعاشره في تلك الرحلة من أذكي خلق الله ، إلا أنه لم يقوَ على انتشار الشاعرة من سباته وذهولة - ولحق براون بالمريضين بعد قليل ، وعندها سافر ريس واختمرت في ذلك الوقت فكرة (لاميا) القصيدة الخالدة في ذهن شاعرنا . وأخذ عن براون موضوع مأساة مسرحية باسم (أوتو الأكبر) . وكان على كيتس أن ينشئ الأحداث . وبينما كان هذا العمل سائراً في طريق النجاح ، انتقل كيتس وبراون إلى وينشستر في الأسبوع الثاني من أغسطس وعند انتهائهما من الفصل الخامس ، أعفى كيتس براون من الرواية ، وأنهاها هو بمفرده ! وكذلك أتم (لاميا) ، وأبتدأ مأساة انجليزية تاريخية باسم (الملك ستيفن) أعطاه براون موضوعها !

وفي أوائل سبتمبر توجه براون إلى بدهامبتون ليقوم مدة مع مستر ومسر سنوك . وفي تلك الفترة راجع الشاعر (حواء سنت اجين) وعمل قليلاً في (حواء سنت مارك) وكتب (إلى الخريف) ، وعند ذلك فكر في الرجوع إلى العاصمة حيث يحترف الصحافة ، وحصل ديلك على مسكن له بشارع الكلية رقم ٢٥ في النامن من أكتوبر ، وعاد براون إلى بيته وحيداً في وينتورث . ولقد كانت صحة كيتس المتخاذلة الواهنة وحبه العميق (لفاني) وحزنه على أخيه المتوفى وقلقه على الآخر المهاجر ، كانت تلك الأمور جميعها تؤثر في نفسه وتهدأ أعصابه وقواه حتى صيرته خيلاً هزيباً فانياً ، أضف إلى ذلك عمله المتواصل في الصحافة والأدب حتى أنه في الثالث من فبراير تجلبى به المرض الميت واضحاً قاضياً . يقول براون : « لقد عرفت أن لا فائدة ترجى منه بعد الآن ، أن ما تبقى نحيف مرعب . سألته عندما رأيته على هذه الحال : ماذا دهاك ؟ لعلك محموم ؟ فأجابني : أجل ... أجل . لقد أصابني بردٌ شديد أرهقني . ولكنني لا أشعر الآن بأثر له في جسمي ، محموم ؟ أجل .. لعلني محموم بعض الشيء .. » واستسلم وتداعى ثباته ، وقدّته إلى الفراش برغمه وتبعته بالعلاج الممكن ، ودخلت مخدعه وهو يهيباً للنوم ، وسمعته يسعل ويبصق

على الأوراق التي كانت على صدره - وبلغ اذني صوته يقول : هذا دم أبصقه من منفي ... فهرعت نحوه ، فوجدته يختبر نقطة من الدم تناثرت على الورقة ، قال : قُرب الشمعة يا براون ، عساي أرى الدم ، وبعد أن فحصها باهتمام نظر في وجهي في جمال و يقين لن أنساها ، ثم قال : « إنني أعرف لون الدم الذي بصقته ، لن اخذع في تمييزه ، ان هذه النقطة من الدم نذير حَيِّني ، لا بد أنني سأموت عن قرب » .
وتقول فاني عن هذا المرض الخبيث إنه « ابتداء بتدرن الرئتين من البرد ، وكان إذا سعل ملاً أناء من الدم ، ويظهر أن مرض التدرن هذا كان وراثياً . . . »

وبعد أسابيع قضاها في عناية تامة في وينورث ، ابتدأت صحته تتحسن ، وراح يجد في نفسه القدرة على الخروج في ٢٥ مارس سنة ١٨٢٠ لرؤية عرض صورة هيدون (عن دخول المسيح بيت المقدس) وعاد اليه صفاؤه واتزانته ونقاء قلبه ، ونسى ما كان بينه وبين هيدون . ويقرر هيدون في ذكرياته ان المعرض كان غاصاً بالناس وكان كيتس وهازليت في ناحية يتحادثان في ابتهاج وحرارة . وقال له الأطباء فيما بعد إن شتاء واحداً يقضيه تحت سماء إنجلترا قد تكون منه خاتمة . وكتبت ماريا جيسون في ١٢ يوليو تقول : « لقد تأملت جداً عند رؤية جون المسكين ، انه ينتظر كلمة الاعدام من فم الطبيب (لامب) . وكتب شيللي اليه من ييزا خطاباً يدعوهُ الى السفر الى ايطاليا ليكون الى جانبه هنالك . بيد أنه اعتذر عن تلبية الدعوة شاكرآله تفضله العظيم ولكنه أراد السفر الى ايطاليا ، وصمم جوزيف سيفرن على مصاحبة الشاعر اليها ، وكان قد ربح وسام الأكاديمية الملكية الذهبي لعام ١٨١٩ ، وفي ١٨ سبتمبر أبحر الشابان على ظهر الباخرة (ماريا كراوتر) الى نابلي . ولقد صادقا في الطريق مصاعب جمة ، وهبت زوبعة عند خليج مسكاي أطارت الأمن من قلبيهما .

وأخيراً وصلا ايطاليا ، وكتب منها الشاعر الى براون في أوائل نوفمبر ، وقبل منتصف هذا الشهر بلغ الشابان رومة وأقاما في مسكن في Piazza di Spagna ، أنيق للغاية ، وبقي كيتس تحت رعاية الطبيب كلارك وعنايته ، وكتب آخر خطاب في ٣٠ نوفمبر الى براون ، وعند ذلك ساءت صحته فجأة ، وصار يبصق الدم ويتقيأ بفزارة حتى ارتاع صديقه وزميله الأمين الذي لازمه كظله واعتنى به طول مرضه وأخلص له حتى الرمق الأخير ، وامتد هذا العذاب المريع الى ١٣ من فبراير . ويحدثنا سيفرن عن الخاتمة :

« لقد انتهى امات بغاية السهولة . لقد كنت أحسبه مقبلاً على نوم عميق ... في الساعة

الرابعة دنا منه الموت ، فقال لي : سيفرن . . . أيها الصديق الوفي ، ارفعني قليلاً — إني أموت — سأموت مرتاحاً مطمئناً ، لا تخف ، كن ثابتاً ، واشكر الله على أن عجل بوفائي . . . فرفعته بين ذراعي . وكانت روحه تفارقه ، فهدأ وكنت لأزال أحسبه ينام . . . لا يمكنني أن أطيل الآن لقد تحطمت أعصابي من سهرى عليه هذه الليالي الأربع ، لم يغمض لي جفن خلالها ، ولقد ذهب . . . ذهب عزيزي كيتس . . . ولقد شق صدره منذ ثلاثة أيام ، وأخرجت الرئتان . ويعجب الأطباء هنا ، كيف أمكنه أن يعيش هذين الشهرين بهاتين الرئتين المحطمتين . ! تبعت جثمانه العزيز الى قبره يوم الاثنين وسط رهط من الانجليز المقيمين هنا . انهم يهتمون بي كثيراً . أرى انه ربما أصابتنى حمى ، ولكني الآن أحس حالاً .

دُفن في رومة في مقبرة البروتستانت ، ودفن الى جانبه بعد أجل طويل صديقه المخلص الأمين سيفرن . . . ولم يسمع شيللي في ييزا بفاجعة رومة إلا في ابريل ، فتألم الشاعر الكبير ألماً بالغاً ، إذ كان يحب كيتس ويحلم شاعريته الصافية التي كان ينكرها ويحاربها الكثيرون من أهل عصره ، فكتب قطعه الملتزمة (أدينوس) ووهبها روح الشاعر العظيم (جون كيتس) .



هذه ترجمة عاجلة سريعة للشاعر الكبير أردنا نقلها لجمهرة المتأدبين في اللغة العربية ليقفوا على حياة تلك النفس الشاعرة الكبيرة ، أما القدر الأدبي لشعر كيتس فموضوع ليس هذا مكانه وإنما يجب أن نقصر عليه دراسة خاصة به لأهميته ، وربما حاولنا ذلك لو ساعدتنا الظروف ، ومع هذا فنسجل مع هذه الكلمة نظرة سريعة في شعر كيتس للفائدة العامة :

لا يمكننا أن نقرأ شعر كيتس إلا إذا أحطنا بظروفه كلها ، وعرفنا كيف كان يفنى ويحترق في سبيل الفن الخالص الصادق . وان الذي يجرؤ على الكتابة عنه لابد أن يكون قد أحاط خيراً بالفلسفة الشعرية والميثولوجيا الاغريقية التي كان كيتس مولعاً بها إلى حد العبادة ، والواقع أن كيتس كان على حق حينما كتب الى أخيه جورج يقول انه لابد سيصبح « عالماً من أعلام الشعر بعد موته » . ولم يخل الشاعر مع ذلك من هنات بسيطة لا تعد سقطات إذا قيس بالجمال الفني الرائع الشائع في كل شعره ، وإذا قيس كذلك بأخطاء الشعراء القدامى الفاحشة . ولقد كان سبنسر

عظيم التأثير في روحه كما يلوح لنا من مذكراته في (أنديميون) ، ورغم ذلك فاني أرى روح نومسون غالبية على شعره الأول .

ثم لا ننسى أنه مدين للآداب القديمة ، فهي دائماً مذكورة في شعره و(أنديميون) فيها ثقافة خيالية بارعة ، وإن متانة حيكته واسترسال جمالها لا يسمحان للمرء بالتفكير في نقدها لحظة واحدة . وهناك غير (أنديميون) قصائد كثيرة ، بارعة سامية الخيال خصبة التفكير ، قلما يعثر على أمثلها المرء في الشعر الانجليزي الحديث ، فهناك : الى بلبل ، وإلى الخمول ، وحواء سفت مارك ، والحسناء القاسية ، تعتبر جميعها بين عيون القصيد .

أما الميثولوجيا فقد تحدثت عنها الشاعر بما لم نعهده قبلاً من سواه . وفي رسالة الى جورج ماتيو يقول :

« في ساعة سعيدة

هبطت (ديانا) من مقصورتها المظلمة » .. الخ .

وفي أخرى الى جورج كيتس يجربنا الشاعر عما يراه في السماء بجانب القمر :

« آه .. أجل .. كائنات كثيرة تسبح في نوره

وأشباح الليل وشياطينه

اني لأراها رأى العين ، وسأقصر عليك قصصها التي تنتزع طرافتها صبيحة

الاعجاب من فؤادك » ... الخ .

ويقول في رسالة إلى كلارك :

« وحينما يبسم القمر في ليلة الصيف الغراء

ويضيئ أشعته فتخترق السحب وتشقها » ... الخ .

ويقول مرة أخرى لجورج كيتس :

« ظهر القمر بجلاله مخترقاً أستاره الذهبية

مخفياً نصفه عن عيون حاسديه » .. الخ .

والواقع أنه أدمن الكتابه عن القمر ، حتى حسبه قوم أنه عاشقه !

ومن العجيب أن هذا الشاب استطاع أن يخلد اسمه بكتابات بين العشرين والخامسة والعشرين فقط ! كتب كيتس الى شقيقه يقول : « اني أظن أن سيدرج اسمي

بين الشعراء بعد موتى ولكن أرنولد قال « إنه مع شكسير . . .
والواقع هو ذلك ؟

المصادر

- The Literary Pocket-Book
Leigh Hunt's London Journal
The Poetical Works of John Keats
The Life and Letters of John Keats
Wordsworth, Shelley, Keats, and Other Essays
The Papers of a Critic
Benjamin Robert Haydon.
John Keats. A study (Owen)

مختار الوكيل

٢٤١٥ و ٢٤١٦

بشار بن برد

(١)

مقدمة : لعل أستطيع أن أتحدث الى قراء (أبولو) عن شيخ المخضرمين وحامل
لواء الشعر الرصين ، وحجة اللغة والأسلوب المتين ، بشار بن برد الذى ظلمه الدهر
حيًا وميتًا . فقد عاش والناس يخطبون وده ، لا شفقة عليه ، ولا رحمة به ، بل
خوفًا منه ، وتفاديًا من لسانه . ومات ، والكل فرح بموته . فلم يشيعه الى منواه
الأخير ، الا عجوز شحطاء ، هى جارية له سوداء . ولم يجد عليه بكلمة رثاء من
كان يجزل لبشار المعطاء ، أو يتظاهر له فى حياته بالرعاية والولاء . ولم تذرف عليه
دمعة أبة غانية أظهرت له الوفاء ، وقد مدحها فى شعره ، فارتاحت للمدح والثناء ،
وقضى ضربًا بالسياط وألقى فى سفينة حتى مات . واستلت حياته من يد الأجل
ولم يخلف لنا ديوان شعر نستنير بهديه ، ونستشهد به على جودة شعره . وله من
قلائد عقيانته ما لم نقر منه الا بالقليل . واذا صح ان له ديوانًا فى إحدى المدن
الاسلامية ببلاد المغرب ، وان نقرأ من أساطين الأدباء يعملون على نشره ، كان

لنا ما يعيننا على تعرف ما استغلق علينا فهمه ، من شخصية هذا الشاعر المجيد ، ولعلى أستطيع أن أضع شعره بين كفتي ميزان لنحكم له أو عليه . ولعله يجد من القراء النصفة ، بعد أن سامه بفضاً له ، وموجدة عليه ، واجحاداً لفضله ، اسحق ابن الموصلي ، الذي قال عنه إن ذاكرته مهوشة ، وشعره مضطرب غير متناسق ، وإن غث شعره أقل مرتبة من أى شعر ردى ، مستشهداً بقول بشار :

انما عظم سليمى حبتي قصب السكر لا عظم الجمل
فاذا أدنيت منه بصلا غلب المسك على ريح البصل^١

فهل فى شرعة الانصاف ان نذم شاعراً ألف اثني عشر ألف قصيدة ، جلها جيد متين ، من أجل بيتين ضعيفين ؟ إذا كان كذلك ، قلت على الشعر العفاء ورحمة الله على جميع الشعراء الا معصوم بحق الا الله .

سيرته : هو أبو معاذ ، بشار بن برد . أبوه من فرس طخارستان ، أحد الاقسام الجنوبية من التركستان . ولد بالبصرة بالعراق سنة خمس وخمسين هجرية ، ونشأ فى بنى عقيل فشب فصيح اللسان ، قوى الجنان ، مرهف الذهن ، متين البيان . قال الشعر فى السابعة ، وفى رواية أخرى فى العاشرة . فهو شاعر مطبوع أجمع الرواة على أنه أشعر أهل عصره . جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضرة وبين المعانى الدقيقة والأخيلة الرقيقة . وسرى أنه أشعر الشعراء فى زمنه ، وأولهم فى البديع ، وأسبقهم الى الغزل الرقيق وإن كان أكثرهم مجوناً واستهتاراً ، وأقلهم مبالاة واعتباراً .

بشار وأبو العلاء وجون ملتون : ولد بشار أعمى البصر ، نافذ البصيرة . لم نكتحل عيناه بمرأى الضياء ولكنه وصف من الاشياء بما عجز عن وصفه البصراء . كان بشار كأبى العلاء : كلاهما أعمى ، وكلاهما متشائم . أولهما شائء مشنوء ، وثانيهما مبغض غير بغيض . كلاهما مرهف الذهن حقاً وضدقاً ، وكلاهما متهم بالزندقة ، إن ظالماً وإن عدلاً . أولهما يشكر الله على عماه حتى لا ترى الناس عيناه ، وثانيهما يحمد الله الذى لا يحمد على مكروهه سواء ويتبرم بالعيش والحياة . كان بشار فى عماه وذكائه كالشاعر الانجليزى العبقري چون ملتون الذى عاش من سنة ١٦٠٨ إلى سنة ١٦٧٤ م . والذى ألف فى عماه « الفردوس المفقود » و « الفردوس المردود » . كلاهما شاعر مفلح وكلاهما غزير المادة فنان عبقري . أولهما عمى فى طفولته ، وثانيهما عمى فى كهولته . كلاهما يحمد الله على عماه . أولهما لكيلا يرى

شخصاً سواء ، وثانيهما حباً في حمده ، واذعاناً لقضائه وقدره ، وطمعاً في ثوابه وأجره .
بشار ولدوج فان بيتهوفن : ليس غريباً أن يكون بشار أعمى البصر ، مرفه
 الذهن متوقد البصيرة . فقد كان بيتهوفن نحر المانيا وناطقة الموسيقى أصمّ محروماً
 حاسة السمع فلم يحل صممه دون قدرته الفنية الموسيقية . فقد عاش من سنة ١٧٧٠
 لغاية ١٨٢٧ م . وأصبحت حياته بموته وعبقريته في سماء الخلود . وبلغ قمة مجده في
 ابان صممه ، وفي أثناءه ألف كثيراً من القطع الموسيقية والألحان ومنها «سوناتا
 باسيوتيك» و «باتيتك سونانا» و «المارش العاشر» .

أخلاق بشار : كان بشار قوى الجسم ، ضخم الجثة ، دقيق الحس ، رقيق النفس
 ملتهب العاطفة ، قوى الشعور ، متكالباً على اللذة ، يحوم عليها حوامات النحلة على
 الازهار كما كانت الناحية الخلقية فيه مشوبة بالضعف والنقص . ولكل امرئ
 محاسنه ومساوئه .

شعره في الميزان : فلنضع شعر بشار بين كفتي ميزان ، لنرى الكفتين
 أيتهما الراجحة ، ولننظر فيما أجاد من فنون الشعر وأغراضه ، نر أنه كان نابغة الفن
 ونبراس البيان . وكان متين اللفظ قوى الأسلوب ، كما كان شاعراً مطبوعاً ذكياً ،
 مجيداً كل الاجادة عبقرياً . ذلك لانه ضرب في كل أغراض الشعر بسهم وافر ، وإذا
 عرفنا أن أغراض الشعر في زمنه ثمانية هي : المدح والحكم والوصف والفخر والرثاء
 والاعتذار والفرل والهجاء ، وقد يجيد كل شاعر بعضها دون الآخر ، أيقنا أن
 بشاراً ، اذا أجادها ، جليها أو كلها ، كان شاعراً مفلحاً ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحقه
 فيها لاحق .

بعض الآراء في شعره : يعتبر شعر بشار حلقة الاتصال بين الشعر القديم
 والشعر الحديث . قال الجاحظ : «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومزدوج
 وسجع ورسائل . وهو من المطبوعين أصحاب الابداع ، المتقنين في الشعر ، القائلين
 في أكثر أجناسه وضروبه » وقال عنه عبد الله بن محمد بن شرف القيرواني : « هو
 أول المحدثين ، وآخر التخصرمين ومن لحق الدولتين . عاشق سمع ، وشاعر جمع .
 شعره ينفق عند ربات الجمال وعند فحول الرجال . فهو يلين حين يستعطف ، ويقوى
 حتى يستنكف . وقد طال عمره ، وكثر شعره ، وطما بجره ، ونقب في البلاد ذكره » .

وسئل عنه الأصمعي فقال : « هو خاتمة الشعراء . والله لولا أن أيامه تأخرت لفضائله على كثير منهم . لقد سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو أكثر تصرفاً وفنوناً شعرياً وأغزر وأوسع بديعاً . وهو يصلح للجد والهزل . »
مدحه : أجاد بشار في المدح ، وسما بالمدوح إلى أوج الكمال . فكان مدحه كثيراً ، ورزقه ميسوراً ، فن أمدح شعره قوله :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعمد
 فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت ، وأعداني فأتلفت ما عندي !
 وقال يمدح خالداً بن برمك بقصيدة أعطاه عليها ٣٠ ألف درهم :

لعمري لقد أجدي عليّ ابن برمك وما كل من كان الغنى عنده يجدي
 حلبت بشعري راحتيه فدرّتا سماحاً كما درّ السحاب مع الرعد
 إذا جئته للمجد أشرق وجهه اليك واعطاني الكرامة بالحمد
 مفيد ومتلاف سبيل ترائه إذا ما غدا أو راح كالجزر والمدة
 أخالد ! إن الحمد يبقى لأهله جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكد
 فأطعمم وكل من عارة مستردق ولا تبقيها ... إن العواري للرد !
 وقال أيضاً :

حذا خالد في فعله حذو برمك فجد له مستطرف وأصيل
 وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الاعداد فيه دليل
 يسمون بالسؤال في كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل
 فسمّاهم الزوار ستراً عليهم فاستاره في المهتدين سدول
 ومن غرر قصائده ما قاله في مدح عمر بن هبيرة أحد القواد :

جفا وده فازور أو ملّ صاحبه وأزري به ألا يزال يعاتبه
 يخاف المنايا أن ترحلت صاحبي كأن المنايا في المقام تناسبه
 فقلت له إن العراق مقامه وخيم إذا هبت عليك جنائبه

حكمه : ومنها في الحكم

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
 فعش واحداً أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
 إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربته؟
 ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معائبه !
 ولكن ، ليت شعري ، أفا كان الأجدر ببشار أن يقرن هذا القول بالعمل ،
 فلا يسرف في بغض الناس حتى يعيش معهم في سلام ووئام ؟ لقد كان أولى به . فأولى
 أن يعرف نفسه بنفسه ، فينصحه قبل أن ينصح غيره . وما له لم يجده ذكاًؤه نفعاً
 ولم يستخدم هذا الذكاء في التجنب الى الناس ليكون محبباً لهم محبوباً منهم لعل
 له عذراً ونحن نلوم . ولعل الناس أرهاقوه من أمره عسراً ، وساءوه بايذاهم ، فأساء
 بلسانه اليهم . ولو لم يلق منهم ايذاء ، لما كان سليط اللسان هجاء . لقد أدى بشار رسالته
 على موجات الأثير ، كما يؤدي جهاز الراديو رسالته . وقد يكون بشار جباراً ، وكل ذي
 عاهة جبار . وقد يكون عليه حرج ، وليس على الاعمى حرج . وقد يكون مظلوماً
 أفسده المجتمع ، وأساء اليه الناس باعناتهم ، فخرج شيطاناً رجيماً ، بدلا من أن يكون
 ملاكاً كريماً . قد يكون ظلمه غيره وقد يكون ظلم نفسه . ويأويح أمة ابتليت بشاعر
 استمرأ مرعى البذاءة ، أو صاحب محطة للراديو يصدع آذان المستمعين بهجر القول
 وخش الحديث ! وتبعاً لذلك ألوم الذين ساعدوا بشاراً ، لارحمة به ، بل خوفاً منه
 وهرباً من لسانه الذي (لو سلط على شعر حلقة ، أو على حجر لفلقه) ! وسأؤاخذ
 بشار في هجائه المقذع ولسانه المرهف .

نصائحهم : من أروع ما قال في النصيحة

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
 ولا تجعل الشورى عليك غضاظة ولا تجعل الشورى عليك غضاظة
 وما خير كف أمسك الغلّ أختها وما خير كف أمسك الغلّ أختها
 وخل الهوينا للضعيف ولا تكن وخل الهوينا للضعيف ولا تكن
 وحارب إذا لم تعط الا ظلامه وحارب إذا لم تعط الا ظلامه
 برأى نصيح أو نصيحة حازم برأى نصيح أو نصيحة حازم
 فان الخوافي قوة للقوادم فان الخوافي قوة للقوادم
 وما خير سيف لم يؤيد بقائم وما خير سيف لم يؤيد بقائم
 نؤوماً ، فان الحزم ليس بناثم نؤوماً ، فان الحزم ليس بناثم
 شبا الحرب خير من قبول المظالم شبا الحرب خير من قبول المظالم

وأذن على القربى المقرب نفسه ولا تشهد الشورى امرأ غير كأنم
فأنك لا تستطرد بهم بالني ولا تبلغ العليا بغير الكارم
إذا كنت فرداً هرك القوم مقبلاً وإن كنت أدنى لم تفز بالعزائم
كأنني به قد عرف نفسيّة الأفراد والجماعات ، وكأنني به ينطق بلساننا ويشعر
بشعورنا ويعيش بين ظهرانيها وقد صدق ابو عبيدة إذ قال : « إن ميمية بشار هذه
أحب إلى من ميميتي جرير والفرزدق » . لعلنا طربنا لما قال ولعلنا نظرب إذ نسمع :
وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا في يد امرئ خفق له من طاعة بتصيب
(للبحث بقية)
منولى نجيب



نقد الينبوع

(١)

أشرنا من قبل الى اعمياد الشعراء والأدباء عامة أن يتعالوا على النقاد ، والى
نزوع الأخيرين مثل هذا المنزع ، بحيث صار كل فريق يعدّ نفسه دكتاتوراً
أديباً لا مردّ لقوله ! وقد بذلنا جهدنا سنين لبثّ روح الاحترام الواجب التبادل
بين الفريقين ، وروح التسامح واحتمال المناقشة ، ما دام الغرض من النقد والنقاش
خدمة الحقيقة خدمة خالصة .